ثأر الكلمات

بقلم : حميد التهامي

لقد أسهبت في الحديث كثيرا عن وجهات نظر عديدة ,

منها الطفولية و الشبابية و حتى تلك التي تصيب الكهول حين يفارقون آخر شعرة سوداء في رؤوسهم و أنا ما أزال فتيا,

أتلف ذلك الهرم الفكري متعتي و بنى حولي أسوارا تلتهم سعادتي حتى ما أكاد أرى فيها شيئا مضيئا يؤنس غربة نفسي عما يحيطها.. كأني لا أنتمي إلى حيث أنا موجود حقا و تلك حقيقة بت أرفضها, إذ كيف ينتمي الإنسان إلى حيث لا يشابهه شيء في روحه و نظره إلى ما حوله.

بات ذلك الشعور الخانق يداهمني حتى في أحلامي, يمارس شعوذته تلك في كل حالاتي حتى تلك التي أفقد فيها حس التفكير ذلك, لقد طرق باب أحلامي و أجفلني حتى في تلك الفسحة البعيدة التي أركن

إليها حين أعجز عن الميل لشيء مما يحيطني و أنا أشتغل بكامل حواسي.

ذلك القلم الذي طالما رأيته سجنا دون اللعب و قيدا دون الحرية التي ألتهم بها ما تطاله حواسي من الحياة عموما, لقد إكتشفت و لا أدري كيف ؟ و لا متى ؟.. إكتشفت أنه ليس بذلك السوء الذي كنت أراه عليه.

لقد أمسكت به في يوم لم أكن مجبرا على حمله, تلك الإجبارية التي كنت أمقت وجودها في يومي لكن ما من سبيل أنتهجه سواها حتى أصل إلى غاية من الغايات التي بدت جميلة حين لقنوها لي كأنها الدرع الذي أتقي به جوارف الحوادث.

همست في عقلي فكرة ..أن أكسر ذلك الحاجز المصمت بيني و بين ضوضاء الحياة التي لم تلتهمني في أي جزء منها, لم تكن تشبه ثرثرتي و لا ذوقي و لا مزاجي الذي بت أراه غريبا في ذاته و بات وزرا –ربما- حملته منذ ولادتي.

ما من سبيل بقيت حتى تلتصق كلماتي بمادة من مواد الحياة سوى ذلك المداد وحركة القلم وهو يخطها دون سابق تخطيط.

كتبت طويلا..

كانت تصدر مني زفرات طويلة بعد كل سطر يحمل فكرة ما, كان يؤرقني حملها داخل صدر هش, كأنها سجين طال مكثه في غياهب السجون حتى رأى نور الحرية مباغتة.

حين أفلته من يدي, لم يكن من تعب أصابني منذ أمسكته, بل لأني شعرت أني إكتفيت من فضفضتي و نفست عن باطني الذي كاد ينفجر و أنا غير مدرك لذلك حتى حينما لفتني أصناف الشتات و الأرق جميعها, لقد أدركت أني كنت أحمل بركان يتهيأ للفتك بكل حي يحيطني ربما لولا أني تداركته في ساعته الأخيرة أو هكذا خيل إلي..

حينها فقط أدركت, أين يمكن أن تحملني خطواتي كلما أوصدت من حولي أبواب الإنصات و

إستحكمت دون فهمي صنوف الحوادث, و إتمهني ذلك الضمير بالجبن و التخاذل دون الثبات على موقف ما.

لقد عجبت لذلك الصديق الجديد, أين كان ؟ و لأي شيء لا تنطق تلك الأقلام داعية لإجتماع مع الأنفس و إلتحام مع الفكرة و أنس بالخاطرة؟, كأني أردت أن أهتف بأعلى صوت :" لم أعد بحاجة إلى آذان تصغي إلي, لقد إكتفيت بقلمي عن الجميع ", حتى و إن لم تكن تلك حقيقة مطلقة بل مجرد إحتفاء بذلك الركن الأريب الذي كشف لي عن ملكته العظيمة في برء النفس من أعطال الكتمان و عسر هضم الكوامن التي ربما صفدتها دون متعة العيش.

لقد أدركت – متأخرا بعض الشي ربما -..

ثأر الكلمات لأصحابها, و بلسما يمسح بيد بريئة على صدوعها حتى تلتئم, حتى تعود طائرا معافى الجناحين يسبح في فضاء لا محدود, يعبر جميع

تلك الفواصل التي كانت تعيق رغبته و تهزم جموحه.

أدركت أن الفضاء المادي ليس هو فقط المضمار الذي ننتصر فيه أو نهزم و ليست خطوات الأقدام هي الوحيدة التي تميز بين مهارة العدائين أو تباين قواهم, إذ ليست الأقدام فقط ما يحملنها في ذلك المضممار بل الكلمات الصائبة و الفكرة النافعة التي لا يقوى عودها و يثبت و يشع ألقا و يغدو نورا يبدد الظلمات و يستجلي ما غاب من السبل بين أجنحتها إلا في ذا الركن الأنيس .

و ليس الأمل فقط في غنائم الجيب بل في غنائم الفكر الذي لا يربو إلا بين أعشاش الأوراق , يغذيه مداد الأقلام فيصيره شعاعا يخترق ما يستعصي على الأنامل نيله.

إن الكلمات قوس آخر قد يستعيض به العاجز فيجبره

و هو للمتقن سهم صائب أفضل إصابة من تقدير العين أو ذؤابة الأصبع.

الكلمات.. نهر مغمور.. وستر موفور ولحاف دافئ يُدَثر.

تدرك به طهارة النفس و تحفظ به تهتكها بين فلتات اللسان و تأنس بها دون الوحدة.